الفصل الثالث

النبوة

حقيقة النبوة – معرفة النبي – طاعة النبي – الحاجة الى الايمان بالنبي – التاريخ الموجز للنبوة – نبوة محمد صلى الله عليه وسلم – ثبوت النبوة المحمدية – ختم النبوة – الدلائل على ختم النبوة .

انك قد عرفت من الفصل السابق ثلاثة أمور :

أولاً : أن الانسان محتاج الى العلم الصحيح بذات الله تعالى وصفاته وطرقه المرضية وحساب الآخرة ومجازاتها ، لطاعة الله وامتثال اوامره واحكامه ، وأنه ينبغي أن يكون علمه هذا قد بلغ من قوته واتقانه درجة اليقين والوثوق .

ثانياً : أن الله تعالى ما كلف عباده أن ينالوا هذا العلم بكدهم ، بل قد اصطفى منهم رجالاً — وهم أنبياؤه — وأعطاهم هذا العلم وأمرهم أن يبلغوه سائر عباده في الأرض .

ثالثاً : أنه ليس على الناس الآن الا أن يعرفوا انبياء الله الصادقين ، وأنه اذا علموا من رجل أنه نبي الله اليهم ، فعليهم أن يؤمنوا به ويسمعوا له ويطيعوه في قوله ويذعنوا لأمره ويحتذوا على مثاله في كل شأن من شؤون حياتهم.

ونريد ان نبين لك الآن ما هي حقيقة النبوة وما هو الطريق الى معرفة الأنبياء .

حقيقة النبوة :

إن الله تعالى قد خلق في هذا الكون كل شيء يحتاج اليه الانسان . فهو مزوّد منذ ولادته بالعينين للنظر ، والاذنين للسماع ، والانف للتنفس والشم ، والقوة اللامسة في الجلد للحس ، والقدمين للمشي واليدين للعمل ، والذهن للفكر ، وما اليها من الأعضاء المتعددة الاخرى التي يشتمل عليها جسده الصغير ، زوده الله تعالى بكل ذلك نظراً الى مختلف حاجاته . ثم عندما يدخل في هذه الدنيا ويبدأ فيها حياته ، يجد أمامه من أسباب العيش ومرافق الحياة مالا يدركه الاحصاء . فهناك الهواء والماء والنور والحرارة ، واللبن في ثدي الام ، والحب في قلوب الابوين والأقارب وغيرهم . ثم على قدر نموه وترعرعه تزداد أسباب قضاء حاجاته في الدنيا . كأنه لم يخلق كل ما في السماوات والارض من القوى العديدة الا لاعانته والقيام بخدمته وحده .

ثم تقدم الى الأمام خطوة اخرى ، تجد أن الله تعالى وهب الانسان كل ما يحتاج اليه من المواهب والكفاءات والقوى للعمل في هذه الدنيا . فكل فرد من أفراد البشر يحوز في نفسه قليلاً أو كثيراً من القوة الجسدية والعقل وقوة الفهم والفطنة والنطق . ولله في خلقه شؤون لا يحمد عليها الا هو ، فانه ماسوى جميع أفراد البشرية في قسمته بينهم هذه المواهب والكفاءات ، ولو أنه سواهم جميعاً في قسمتها بينهم ، لاستغنى كل منهم عن أخيه ولم يحفل به أصلاً . ولأجل ذلك قدر الله تعالى ما يحتاج اليه النوع البشري — من حيث مجموعه — من المواهب والكفاءات ثم وزعها بين مختلف أفراده حيث جعل نصيب هذا من كفاءة ما لم يجعل نصيب ذاك ، وجعل نصيب ذاك من كفاءة اخرى ما لم يجعل نصيب هذا . ومن ثم ترى ان بعض الناس يفوق غيره في القوة الجسدية ، وبعضهم عنده من المهارة في فن من الفنون او حرفة من الحرف ما ليس عند

غيره ، وبعضهم فيه من الذكاء والعقل وقوة الفهم ما ليس في غيره ، وبعضهم يميل الى العسكرية ميلاً فطرياً ، وبعضهم يولد على كفاءة خاصة في الحكم والسيادة ، وبعضهم يولد على قوة غير عادية في الخطابة ، وبعضهم فيه من الملكة الانشائية ما ليس في غيره ، وبعضهم يكون ثاقب الفكر متقد الذهن في فن الرياضيات فيحل بكل سهولة كثيراً من مسائله المعضلة التي يعجز عن حلها غيره ، وبعضهم يخترع عجائب الأشياء وغرائبها ويدهش العالم بمخترعاته ، وبعضهم يكون ذهنه حاذقاً نافذاً في القانون وسرعان ما ينفذ نظره الى كثير من نكاته التي لا ينفذ اليها نظر غيره الى عدة أعوام . فكل ذلك من فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده . ولا يقدر رجل أن يوجد في نفسه هذه الكفاءات بنفسه ولا يمكن أن تتأتى هي في نفسه بالتعليم والتربية ، وانما هي مواهب فطرية يختص بها الله تعالى بحكمته من يشاء من عباده .

واذا نظرت في وجود مختلف الكفاءات والمواهب في مختلف أفراد البشر علمت أن لله تعالى حكمة بالغة في هذا الباب ، حيث قد جعل فيهم كل كفاءة وموهبة على قدر حاجة النوع البشري اليها . فجعل رجال الجند ، وكذلك المتعاطين للزراعة والتجارة والحدادة والحياكة وما اليها من المهن الاخرى بحيث لا يكاد يحصى عددهم . أما أصحاب القوى العلمية والفكرية ومواهب السياسة والقيادة ، فعددهم أقل من عدد اولئك ، وأقل عدداً من الجميع اولئك الذين لهم كعب بالغ ومهارة فذة في فن خاص من الفنون . ذلك لأن أعمالهم تغني البشر الى قرون وأجيال عن أمثالهم من الحذاق في هذا الفن .

وهل تتوقف حاجة النوع البشري وسعادة حياته في الدنيا على أن يولد في الناس الماهرون في فنون الهندسة والرياضيات والكيمياء والقانون والسياسة والاقتصاد وغيرها من الفنون الاخرى ؟ كلا ! بل الذي حاجته اليه أشد وآكد

من حاجته الى هذه الفنون كلها هو أن يكون في الناس من يأخذ بيده ويرشده الى صراط الله المستقيم . نعم ! يرشده الى أن يعرف ماله في هذه الدنيا ومما هو الطريق لاستخدامه ، ولكن حاجته أشد وآكد الى من يبين له « من هو نفسه ملك له ، ومن ذا الذي وهب له ما في السماوات والارض وما هي مرضاة هذا الواهب حتى ينال الفوز الابدي اليقيني بقضاء حياته وفقها » ومما يأباه العقل الانساني ان يكون الله تعالى الذي خلق للانسان كل صغير وكبير يمكن أن تمسه الحاجة اليه في هذه الدنيا ، قد غفل عن حاجة الانسان هذه ولم يكترث لها أصلاً ، وهي أكبر حاجات الانسان وأقدمها كما عرفت . نعم ! لا يمكن ذلك أبداً ، بل الله قد خلق في الناس رجالاً كانوا على استعداد عظيم لمعرفته بانفسهم ، فاعطاهم من عنده علم الدين والاخلاق والشريعة وكلفهم بتعليمها سائرَ العباد في هذه الدنيا . فهؤلاءِ الرجال هم الذين نسميهم برسل الله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

معرفة النبي :

فكما أن البارعين في جميع العلوم والفنون يولدون على قريحة خاصة وطبيعة غير عادية يمتازون بها عن غيرهم ، كذلك يولد الأنبياء على طبيعة خاصة يمتازون بها عمن سواهم .

يتبين لك الشاعر المطبوع بمجرد سماعك لكلامه ، وتعرف أنه قد ولد مزوداً بملكة خاصة في الشعر ، لان غيره لا يأتي بمثل شعره على بذله اتم جهده. وكذلك تعرف الخطيب المطبوع والكاتب المطبوع والمخترع المطبوع والقائد المطبوع باعمالهم ، فان كل واحد منهم يأتي في أعماله بقريحة فذة لا عهد للناس بها في غيره . وكذلك تُلقى في روع النبي وتجول في ذهنه افكار مبتكرة

لا تخطر ببال أحد من البشر ، وهو يعرض على الناس ويشرح لهم من المسائل والموضوعات مالا يستطيع أن يبينه لهم غيره . وكذلك ينفذ نظره الى امور دقيقة لا يهتدي اليها نظر سائر الناس ولا يفهمونها على بذلهم كل جهودهم أعواماً وسنين . يقبل العقل السليم كل ما يقول وتشهد القلوب بصدق بيانه وكذلك تصدقه تجارب الدنيا ومشاهد الكون في كل قول من أقواله ، ولكن اذا أراد امرؤ أن يأتي بمثل شيء من أقواله ، فلن يستطيعه ابداً ، ويكون النبي طاهر الفطرة ، نقي السجية ، لا يسلك في كل شأن من شؤونه الا طريق الصدق والعفاف والشرف ولا يأتي في أقواله أو أعماله بشيء لا يلائم الحق والصواب . يهدى الى الرشد ويسابق غيره الى العمل بما يأمر به الناس ، ولا يكاد يوجد مثال واحد في حياته لمناقضة عمله لقوله . وهو يتحمل المضرة في مصالح غيره ولا يضرهم في مصلحة نفسه . وحياته كلها صدق وأمانة وشرف وصفاء وسريرة ، وفكرة عالية ، ومروءة سامية ، لا أثر فيها لعيب او نقيصة فيشهد كل ذلك شهادة ناطقة بأن هذا نبي الله الصادق ارسل الى الناس لهدايتهم.

طاعة النبي :

واذا عرفت عن رجل انه نبي صادق من عند الله تعالى ، فعليك أن تطيعه في كل ما يأمر به او ينهى عنه، فانه مما يأباه العقل البشري العام أن تسلم لإنسان بنبوته ثم لا تطيعه ، فانه لا معنى لتسليمك بنبوته الا انك قد آمنت انه لا ينطق عن الهوى ولا يقول شيئاً الا من عند الله ، ولا يأتي بعمل الا حسب مرضاته تعالى ؛ فكل ما تقول او تعمل الآن خلافاً لهذا النبي فانما تقوله وتعمله خلافاً لله تعالى نفسه ، وكل ما يكون خلافاً لله تعالى ، لا يمكن أن يكون حقاً ابداً . فالذي يستلزمه ايمانك بالنبي أن تطيعه طاعة تامة بدون أي اعتراض او توقف

في كل ما يأمرك به وينهاك عنه ، سواء أفهمت ما في أمره أو نهيه من الحكمة والفائدة أم لم تفهم ، فان مجرد كونه من عند الله ، هو أكبر شهادة بصدقه وتضمنه لجميع الحكم والفوائد . واذا كنت لا تفهم حكمة من حكمه او فائدة من فوائده . فما ذلك لعيب في صميمه . وانما ذلك لشيء من الفساد او القصور في قوة فهمك أنت ومن الظاهر أن رجلاً غير ماهر في فن من الفنون ، لا يكاد يفهم دقائقه أو يحيط علماً بفروعه يكون بالغ السفه اذا رد على الماهر قولاً من اقواله المجرد أنه لا يكاد يفهمه أو يفطن لما فيه من الحكمة والفائدة . وكل امر من امور الدنيا مفتقر الى رجل حاذق فيه محيط بدقائقه ، وعندما يجد الناس هذا الرجل الحاذق ، يرجعون اليه ويصدقونه ويعتمدون عليه ولا يعترضون عليه ولا يتدخلون في اعماله ، لأنه لا يمكن ان يكون جميع الناس ماهرين في جميع العلوم والفنون قادرين على فهم امور الدنيا كلها . فالذي يجب ان تقصر عليه قوة عقلك وفهمك هو البحث عن رجل ماهر ؛ فاذا وجدته وآمنت بمهارته فعليك أن تثق به كل الثقة وألاّ تتعرض لشيء من اعماله بالنقد والاعتراض ومن السفاهة ان تقول له « لا اصدقك ولا أومن بمهارتك ألا اذا جعلتني على علم بما في عملك هذا وهذا وهذا من الحكمة والفائدة » ألا تكل أمرك الى المحامي عندما تعرض لك قضية في المحكمة ؟ وقل لي ألا يطردك هذا المحامي من مكتبه اذا تعرضت لاعماله بمثل هذا التدخل ؟ وكذلك قل لي ألا يكف الطبيب عن علاجك اذا طلبت منه الدليل على صحة كل وصفة من وصفاته ؟ فهذا ايضاً أمر الدين بعينه . انك محتاج الى علم الله والى ان تعرف الطريق الصحيح لقضاء حياتك وفقاً لمرضاته ، ولكن لا سبيل لك الى اقتناء هذا العلم ومعرفة هذا الطريق بنفسك ، فمن واجبك اذن أن تبحث عن نبي الله الصادق وتعمل في البحث عنه كلّ ما أعطاك الله من قوة العقل والبصيرة والفهم والفطنة

فانك اذا اتخذت نبيك رجلاً لم يبعثه الله تعالى ، أضلك عن سبيل الحق وسلك بك طرقاً معوجة ، ولكن اذا أيقنت ـ بعد البحث والتنقيب والاختبار ـ أن رجلا ما نبي الله مرسل من عنده ، فعليك أن تعتمد عليه كل الاعتماد وتطيعه طاعة كاملة في كل شيء يأمرك به او ينهاك عنه .

ادلة الى الايمان بالانبياء :

إذا عرفت أن طريق الاسلام المستقيم هو الذي يرشد اليه النبي بأمر ربه ، علمت أن البشر جميعاً محتاجون الى الإيمان بالنبي واتباعه ، وامتثال أمره ، وأن الذي يخالف النبي ويعرض عن طاعته ويبتدع طريقاً بنفسه ، هو الضال من غير شك .

والناس يأتون في هذا الباب بعجائب . فمنهم الذين يعترفون بصدق النبي ولكن لا يؤمنون به ولا يطيعونه فما أولئك بالكافرين فحسب ، بل هم سفهاء ايضاً ، فانه لا معنى لتصديق النبي والاعتراف بكونه من عند الله تعالى ثم الاعراض عن طاعته ، الا ايثار الباطل على الحق واشتراء الضلالة بالهدى عمداً . والظاهر أن لا حماقة أفظع من هذه الحماقة .

ومنهم الذين يقولون لسنا بحاجة الى اتباع الرسول ، لأن لنا عقلاً يمكن أن يرشدنا الى الصراط المستقيم فهذا ايضاً خطأ عظيم وضلال بعيد . قد تعلمت علم الرياضيات وتعرف أن الخط المستقيم الواصل بين نقطتين لا يكون الا واحداً وكل خط دونه اما غير مستقيم أو غير واصل بين النقطتين ، فهكذا لا يمكن أن يكون طريق الحق — المصطلح عليه في الاسلام بالصراط المستقيم — الذي يصل بين العبد وربه ، الا واحداً حق بحكم قاعدة الرياضيات هذه . فكل طريق غير هذا الطريق إما غير مستقيم أو غير موصل العبد الى ربه .

وتقدم خطوة اخرى . قد عرفت أن الطريق الموصل الى الله واحد وهو الذي هدى اليه نبيه ، فكل من رغب عن هذا الطريق وأجهد نفسه في البحث عن طريق غيره ، لا يعدو أمره أن يكون على إحدى صورتين :

إما ألا يجد طريقاً موصلاً الى الله اصلاً او يجد طريقاً طويلاً منحنياً . ففي الصورة الاولى لاشك في هلاكه . وأما الصورة الاخرى ، فلا شك أيضاً في كونها حماقة وضلالة على الأقل . ألا ترى أن حيواناً اعجم اذا أراد الوصول الى مكان خاص ، اختار لسيره اليه خطاً مستقيماً . فما ظنك اذن في انسان وهبه الله عقلا وأرسل اليه عبداً من عباده يدعوه الى ربه ويهديه سبل الرشد والخير ولكنه يقول له كلا ! اني لن اتبعك ولن أسلك الطريق الذي ترشدالية، بل سأبذل جهدي بنفسي وأهيم على وجهي في سبل مظلمة ملتوية حتى أنال غايتي !.

وهذا شيء يدركه كل انسان بادنى تأمل ، بل انك اذا اعملت فكرك قليلا، تبين لك أن الذي يأبى أن يؤمن بالرسول لا يمكنه أن يجد للوصول الى الله تعالى طريقاً مستقيماً ولا غير مستقيم ، لانه لابد أن يكون قد اصيب في عقله بشيء يمنعه عن قبول الحق : فاما أن يكون ناقص الفهم أو أن يكون رجلاً متكبراً في طبيعته شيء من الاعوجاج لا يرضى معه بقبول الحق أو يكون مغرقاً في التقليد الاعمى لآبائه ولا يرضى أن يسمع قولاً يفند شيئاً من الأفكار والرسوم التي ورثها عنهم ، أو يكون عبداً قد اتخذ الٰهه هواه ولا يجد من نفسه ميلاً الى قبول تعليم الرسول ، لأنه يرى أنه اذا قبله ، فلن يجد لنفسه مجالاً الى ارتكاب المعاصي والمنكرات التي اعتاد اقترافها في حياته . وكل من وجد فيه سبب من هذه الأسباب ، لا يمكن أن يهتدي الى سبيل الله ، ومن كان بريئاً من أي سبب من هذه الأسباب ، فمن المستحيل أن يعرض عن طاعة الرسول الصادق والاستسلام لتعليمه .

والذي يجب ألا تغفل عنه بهذا الصدد أن النبي إنما يبعثه الله تعالى وهو الذي يأمر الناس بالإيمان به واتباع تعليمه . فكأن الذي لا يؤمن بالنبي ويتمرد عن طاعته ، يخرج على الله تعالى نفسه . وذلك أنه لا بد لك من طاعة حاكم يُولىّ عليك من قبل الدولة التي انت من رعيتها ، فان أبيت أن تسلم به حاكماً على نفسك ، فكأنك خرجت على الدولة نفسها . إن استسلامك للدولة وإعراضك عن طاعة حاكم توليه عليك ، نقيضان لا يجتمعان . وهذا ما بين الله وبين النبي المبعوث من عنده . ان الله هو الملك الحقيقي للناس جميعاً ، فكل من ارسله اليهم هادياً مرشداً وأمرهم باتباعه ، فعليهم أن يؤمنوا به ويؤثروه بالطاعة على أي شيء آخر . والذي يعرض عن طاعته ، هو كافر ، سواء أكان يؤمن بالله أو لا يؤمن .

التاريخ الموجز للنبوة :

هذا . ونريد أن نبين لك الآن كيف بدأت في النوع البشري سلسلة بعث الانبياء وترقت حتى انتهت بنبوة نبي جليل هو سيد سائر الانبياء وخاتمهم .

مما لا يخفى عليك ان الله تعالى انما خلق في بدء الأمر نفساً واحدة ومنها خلق زوجها ثم بثّ منها جميع من نراهم اليوم يقطنون في مختلف أرجاء الأرض ونواحيها وتوزعوا الى مختلف الشعوب والامم ، وقد اتفقت روايات جميع الامم الدينية والتاريخية على أن النوع البشري انما بدأت سلسلته من نفس واحدة بعينها . وكذلك لم تثبت تحقيقات العلوم التجريبية (Science) انه كان في مختلف مناطق الأرض وأرجائها أفراد مختلفون تفرعت منهم هذه السلالات والامم المتعددة المنتشرة في الأرض اليوم ، بل الذي يستنتجه اكثر

علماء هذه العلوم قياساً هو أن يكون قد خلق في أول الأمر إنسان واحد ومن هذا الانسان نفسه انتشرت هذه السلالات الانسانية الموجودة الآن .

هذه النفس الواحدة التي بدأت منها السلالة البشرية إنما هي آدم في لغتنا ومنها اشتقت كلمة « الآدمي » التي معناها الانسان . فآدم عليه السلام هو الذي اصطفاه الله وجعله أول رسول في الأرض وامره أن يعلم ذريته الاسلام أي أن يبين لهم أن ليس لكم ولا لسائر هذا الكون إلا اله واحد ؛ فلا تعبدوا ولا تستعينوا إلا إياه ولا تسجدوا إلا له ولا تقضوا ايام حياتكم إلا وفقاً لمرضاته عادلين صالحين . فان فعلتم جزاكم جزاء المحسنين الابرار وان أعرضتم عن طاعته جزاكم جزاء السيئين الاشرار .

أما الصالحون من ذرية آدم فاتبعوا أباهم واستمسكوا بما هداهم إليه من الحبل المتين والصراط المستقيم . وأما الظالمون فأبوا أن يتقيدوا بطاعته واتبعوا أهواءهم حتى نشأت فيهم السيئات والمنكرات من كل نوع شيئاً فشيئاً . فمنهم من أخذ يعبد الشمس والقمر والنجوم ومنهم من اتخذ الهه شجرةً من الأشجار أو حجراً من الأحجار أو نهراً من الأنهار أو حيواناً من الحيوانات ، ومنهم من ظن ان لكل من الماء والنار والمرض والصحة وما إليها من قوى الطبيعة ونعمها الاخرى إلهاً خاصاً به ، فعلى الانسان أن يعبد جميع هؤلاء الآلهة ويسعى لإرضائها حتى تشمله جميعاً بفضلها وإنعامها ، وهكذا ولّدت الجهالة غير واحدة من صور الشرك وعبادة الأصنام والأوثان وتفرعت منها ديانات متعددة في الأرض . وقد حدث كل ذلك عندما انتشرت ذرية آدم في مختلف أرجاء الأرض ونواحيها وتوزعوا إلى مختلف الشعوب والامم . فجعلت كل امة لنفسها ديانة خاصة بها ، لها طائفة من الرسوم والشعائر لم تكن لغيرها . وجملة القول ان الناس لما نسوا الله ربهم ، نسوا دينه الذي جاءهم به وأرشدهم إليه أبوهم آدم

عليه السلام واتبعوا أهواءهم وتسربت إليهم الرسوم والتقاليد السيئة من كل نوع وتفشت بينهم الأفكار الباطلة والآراء الجاهلية وأخطأوا في تمييزهم بين النافع والضار والحق والباطل . ولذلك أخذ الله تعالى يبعث رسله وأنبياءه في كل امة يعلمون الناس ويوضحون لهم الاسلام الذي كان قد جاء به ـ هو نفسه ـ آدم عليه السلام ، ويذكرونهم بما نسوه من قبل ويرشدونهم الى عبادة الإله الواحد وينهونهم عن الشرك وعبادة الأصنام والأوثان ويقمعون ماراج فيهم من التقاليد الفاسدة والرسوم الباطلة ويهدونهم إلى الطريق المرضي عند الله لقضاء حياتهم ويبينون لهم القوانين ، الصحيحة ويأمرونهم باتباعها . وما من قطر من أقطار الأرض من الهند أو الصين أو فارس أو العراق أو مصر أو افريقية أو اوربة الا خلت فيه رسل الله وأنبياؤه . وما كان هؤلاء الأنبياء جميعاً إلا على دين واحد هو الذي نسميه اليوم (الاسلام[1]) ، غير انه كان هناك فرق يسير بين طرق مختلف الأنبياء في الارشاد وقوانينهم للحياة ، وذلك ان كل نبي قصر جهده في استئصال ذلك النوع الخاص من الجهالة ، الذي كان منتشراً في قومه واصلاح تلك الأفكار الباطلة التي كانت راسخة فيهم خاصة . وحينما كانت هذه الامم في مرحلتها الاولى من حيث الحضارة والتمدن والعلم والعقل ، فقد جاءها انبياؤها بتعاليم وشرائع بسيطة . وكلما ارتقت من هذه الوجوه ، وُسّع لها في نطاق تعاليمها وشرائعها . ثم لم يكن هذا الاختلاف الا بالظواهر فقط ، فان الروح الذي يسري في جميع هذه

(١) من سوء الفهم الذي نرى عامة الناس بل كثيراً من أهل العلم منهم متورطين فيه ان الاسلام كان بدؤه من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . وهذا خطأ فاحش ينبغي أن يكون ذهن الطالب سالماً منه كل السلامة . وليعلم كل طالب ان الاسلام هو الدين الحقيقي الوحيد للنوع البشري منذ أول أمره . وكل رسول من رسل الله في أي زمان ومكان إنما جاء بهذا الدين نفسه .

الشرائع والتعاليم واحد ، وهو توحيد الإله في العقيدة ، والصدق والاخلاص في العمل ، والإيمان بالحياة الآخرة .

وعجيب جداً ما عامل به الناس هؤلاء الرسل والأنبياء . فقد آذوهم واستكبروا عن طاعتهم ، فقتلوا بعضاً منهم ، وأخرجوا بعضاً من ديارهم ، حتى لم يؤمن بفريق من هؤلاء الأنبياء بعد ما أفنوا أعمارهم في الدعوة إلا بضعة نفر فقط . لكن عباد الله المصطفين هؤلاء ما وهنوا ولا استكانوا في جهودهم حتى أثمرت دعوتهم واتبعتهم كبار امم الأرض . وهاهنا اختارت الضلالة قالباً جديداً لنفسها فبدلت الامم تعاليم الأنبياء بعد وفاتهم وأدخلت في كتبهم ظنوناً كاذبة واخترعت للعبادة طرقاً جديدة من عند نفسها . فمن الناس من بدأ يعبد الأنبياء أنفسهم ومنهم من قال ان الله نزل الى الأرض بصورة نبيه ومنهم من جعل نبيه ابن الله ، ومنهم من اشرك نبيه بالله في الوهيته . وهكذا عبث البشر في مختلف الأزمان وسائر الأقطار بتعاليم الأنبياء بعد وفاتهم : جعلوا أصناماً وتماثيل للذين كسروها من قبل ، وعكفوا عليها ، ومسخوا تعاليم الأنبياء وشرائعهم ومزجوها بأنواع من البدع والرسوم الجاهلية والتقاليد الكاذبة والاقاصيص الملفقة وخلطوها بما وضعه الانسان من القوانين من تلقاء نفسه حتى لم تبقَ للانسان بعد عدة قرون وسيلة يميز بها هداية الرسل وشريعتهم الأصلية مما خلطها به من جاء بعدهم من أتباعهم[1] . وكذلك غابت في

(١) هكذا يا أخي الطالب بدلت الامم الماضية دينها الحقيقي – اي الاسلام – واخترعت من تلقاء نفسها ما نجد اليوم في الدنيا من مختلف الديانات المسماة بمختلف الاسماء. فما جاء السيد المسيح مثلاً إلا بالدين الاسلامي الحقيقي ، ولكن الذين جاؤوا بعده ألهوه ومزجوا تعليمه النقي الصافي بما شاؤوا من الاباطيل من عند انفسهم واخرجوا للناس ديناً جديداً سموه « بالمسيحية »

ثنايا الرويات الملفقة أحوال الأنبياء وسيرهم الحقيقية حتى ما بقي عند الناس شيء يُعتمد عليه ويوثق به . غير أن جهود الأنبياء ومساعيهم ماذهبت كلها سدى ، فقد بقي جزء من الصدق والحق في كل أمة على الرغم من مسخها لتعاليم نبيها ومزجها إياها بما شاءت . فقد انتشرت العقيدة بالله والحياة الآخرة في جميع الامم بأية صورة من الصور وسلّمت الدنيا عامة بمجموعة من مبادىء الصلاح والصدق والاخلاق وربّى كل نبي امته وهيأهـا لقبول الحق حتى أصبح من الممكن أن يعم الأرض كلهـا من أقصاها إلى أقصاها دين واحد بعينه ويكون هو الدين الوحيـد للانسانية جمعاء من غير ما فرق بين مختلف أممها .

وهكذا بينا لك من قبل أنه ما كان يرسل الى كل امة الا رسل مختصون بها وفيها كانت تنحصر دعوتهم . ذلك بأن الامم في تلك الازمنة كانت متباينة غير مختلطة في ما بينها وكانت كل أمة متقيدة بحدود أرضها ، فـكان من الصعب في مثل تلك الاحوال ان ينتشر في جميع أمم الأرض وشعوبها تعليم مشترك شامل موحد زد على ذلك أن أحوال كل أمة كانت مختلفة عن احوال غيرها وكان الجهل مطبقاً ارجاء الأرض كلها . فـكانت المفاسد التي تتولد من جراء هذا الجهل في الاعتقاد والاخلاق ، تختلف صورها باختلاف الاماكن والازمان . فمن أجل كل ذلك لم يـكن بد ان يأتي الى كل امة من امم الأرض رسول يهتم بتعليمها وارشادها الى الحق خاصة ويقضي على اوهامها الخاطئة وينشر فيهـا — مكانها — الافـكار الصحيحة شيئاً فشيئاً ويصدها عن الطرق الباطلة ويهديها الى اتباع القوانين العادلة العاليه ويربي أفرادها كما تربي الامم اطفالها الصغار . ولا يعلم إلا الله كم مضى من الوف السنين في تربية امم الأرض بهذه الطريقة حتى جاء على الانسانية حين من الدهر اجتازت فيه أيام صباها

وبدأت تبلغ اشدها وربطت كثير من العلاقات مع الرقي الصناعي والتجاري بين مختلف عناصرها ، واصبح الناس يسافرون من بلاد اليابان والصين الى بلاد أوربة وافريقية البعيدة بالطرق البحرية والبرية وراجت الكتابة في معظم امم الأرض وانتشرت فيها العلوم والفنون وتبودلت بينها النظريات والافكار والموضوعات العلمية ونبغ فيها من الفاتحين واولى البأس من دوخوا البلاد المجاورة وانشأوا في الأرض ممالك عظيمة تشتمل على غير واحد من الأقطار ويسكنها غير واحدة من الامم ، وهكذا جمعت تحت نظام سياسي واحد وبدأ يتبدد ما كان من قبل بين الامم المختلفة من التباعد وعدم التعارف واصبح من الممكن أن ينزل تعليم الاسلام الوحيد وشريعته الوحيدة للأرض قاطبة . ولو رجعت الى ما قبل نحو الفي سنة ونيف من تاريخ الانسان ، لوجدته يتطلب بلسان حاله ديناً كاملاً يكون دين البشرية جمعاء . فالديانة البوذية ، لم تكن ديناً كاملاً وانما كانت مشتملة على مبادىء خلقية ، ولكنها انتشرت مع كل ذلك في بلاد اليابان ومنغوليا في جانب وفي افغانستان وبخارى في الجانب الآخر . ثم جاءت الديانة المسيحية بعدها بقرون . ولا شك أن السيد المسيح كان قد جاء بتعليم الاسلام الخالص ولكن الذين جاؤوا من بعده مزجوا هذا الدين بما شاؤوا من عند انفسهم حتى لم يعد إلا ديانة ناقصة سموها بالمسيحية . ومع ذلك انتشرت المسيحية في فارس وافريقية واوربة ، مما يدل على أن الدنيا كانت متعطشة في ذلك الزمان الى دين عالمي كامل حتى اذا لم تجده ، اقتنعت بديانات ناقصة وآمنت بها وأخذت تنتشر فيها .

نبوة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم :

في هـذا الزمان الذي وصفناه ، بعث للدنيا ولجميع أمم الأرض وشعوبها رسول واحد هو سيدنا ومولانا محمد ﷺ ، في بلاد العرب ووكل اليه أن يبلغ العالمين جميعاً ما اوتي من الهدى ودين الحق والقانون الشامل :

واذا نظرت نظرة في جغرافية العالم ، علمت أن بلادالعرب هي أنسب أرض للرسالة العالمية . فهي بين آسية وافريقية وأقرب ماتكون لأوربة ولاسيما بالنسبة الى ذلك الزمان الذي كانت فيه امم اوربة الراقية المتمدنة تسكن في الاقسام الجنوبية منها وبعدها عن بلاد العرب يعدل بعد الهند عن هذه البلاد .

ثم اذا قرأت ما قالت كتب التاريخ عن ذلك الزمان ، عرفت انه ما كانت في الدنيا امة أنسب وأجدر بهذه الرسالة العالمية من الامة العربية . فقد أخذت أسباب الوهن والانحلال تدرك سائر الامم الراقية والقوى العظيمة بعد أن اقامت الدنيـا واقعدتها . بينما كانت الامة العربية — اذ ذاك — موفورة الجأش حامية الدم . وكان نمو المدنية وارتقاء الحضارة وانتشار الترف في الامم الاخرى قد أفسد عليها عاداتها وخصالها . أما الامة العربية فما كانت الى ذلك العهد على مدنية تجعلها ناعمة البال مولعة بالبذخ والترف مائلة الى السفائل والرذائل وكانت هذه الامة على منجاة تامة في القرن السادس للميلاد من الآثار السيئة لامم الارض المتمدنة الاخرى وكان فيها من الصفات الانسانية العالية جميع ما يمكن أن يكون في أمة لم تصدمها المدنية بعواصفها . وكان العرب شجعاناً مقاديم لا يقيمون وزناً للرهب والخوف ، باسطي الايدي قائمين بالعهود أحرار الفكر والنظر يحبون الحرية والاستقلال ويؤثرونها على كل شيء آخر ، ولم تكن

أعناقهم خاضعة لأمة أجنبية وكانت عاطفة الاستماتة في الذود عن أعراضهم تجري في عروقهم . وكانوا يعيشون عيشة ساذجة لا تعرف الترف والتنعم . ولا ريب أنه كانت فيهم كثير من السيئات والمنكرات ، ولكن الحق أنه ما كان منشأ هذه السيئات الا أنه ما خلا فيهم رسول من الله منذ الفين وخمسمائة سنة [1] ، وما قام فيهم زعيم يزكيهم ويعنى باصلاح أخلاقهم وتعليمهم المدنية والثقافة ، وكانت الجاهلية منتشرة فيهم لما عاشوا عيشة الحرية في الصحراء قروناً من الزمان وقد بلغ تماديهم في هذه الجاهلية أنه لم يكن لاحد قبلهم بتهذيبهم واخراجهم من ظلمات البهيمية الى نور الانسانية . . . ولكنهم كانوا مع كل ذلك أهلاً لأن يقيموا الدنيا ويقعدوها اذا عني باصلاحهم وتعليمهم رجل عبقري وقاموا على أثر دعوته وتعليمه بغاية سامية ورسالة شريفة في الدنيا . فالى مثل هذه الامة الفتية الباسلة المقدامة كانت تحتاج الرسالة العالمية لنشر كلمتها وتعميم دعوتها في سائر أرجاء الدنيا ونواحيها .

ثم انظر نظرة في اللغة العربية ، فانك اذا قرأت هذه اللغة ودرست أدبها ، ظهر لك من دون أدنى ارتياب ، أنه لا يمكن ان تكون في الدنيا لغة أنسب من هذه اللغة لاداء الافكار العالية والافصاح عن أدق معاني العلم الالهي والتاثير في القلوب . فبالجمل الصغيرة من هذه اللغة تؤدى الموضوعات المهمة وتكون قوية التأثير في القلوب . . . الى مثل هذه اللغة كان يحتاج القرآن الكريم . فمن حكمة الله البالغة ورحمته الشاملة بعباده إذن ان اختار أرض العرب على غيرها للنبوة العالمية .

---

(١) كان زمان ابراهيم واسماعيل عليهما السلام قبل نحو ٢٥٠٠ سنة من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم. وما ارسل في العرب خلال هذه المدة الطويلة رسول من عند الله تعالى

فتعال نبين لك ما جعل الشخص الذي اصطفاه الله تعالى لهذه النبوة منقطعَ المثال في هذه الدنيا .

ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم :

ارجع ببصرك الى ما قبل ١٤٠٠ سنة من تاريخ هذه المعمورة ، تجد أنه ليس فيها البرق ولا الهاتف ولا القطار ولا السيارة ولا المطبعة ولا تصدر فيها الجرائد والمجلات ولا تنشر الكتب ، ولم يكن يتيسر للناس من السهولة في أسفارهم ما يجدونه في زماننا هذا ، فكل من أراد أن يسافر من قطر الى آخر ، عليه أن يسير الاشهر الطوال . فكأن بلاد العرب كانت في مثل هذه الحال منقطعة عن سائر اقطار الدنيا . صحيح أنه كانت حولها بلاد فارس والروم ومصر ، ولكن الجبال المترامية الجوانب من الرمال كانت تفصل جزيرة العرب عن هذه البلاد جميعاً . وكذلك كان تجار العرب يرحلون للتجارة الى هذه البلاد على ظهور جمالهم ويصرفون في قطع الطريق اليها الاسابيع والأشهر ، ولكن ما كانت تعدو غاية هذه الرحلات شراء البضائع وبيعها . أما أرض العرب نفسها ، فما كان فيها مدنية راقية ولا مدرسة ولا مكتبة ولا انتشار للعلم والتعليم في الناس والذين كانوا يعرفون منهم القراءة والكتابة يعدون على الأنامل . ثم ما كانت معرفتهم بها بحيث تعينهم على الالمام بما كان خارج بلادهم من العلوم والفنون في ذلك الزمان ، وما كانت فيهم حكومة تهتم بجمع كلمتهم ولا قانون يأمرهم وينهاهم ، بل كانت كل قبيلة فيهم مستقلة بنفسها وكانوا يسلبون الناس وينهبونهم بكل حرية ويسفكون الدماء في الحروب الاهلية الدامية المستمرة وكانوا لا يقيمون

وزناً للنفس البشرية فكان من يشاء يقتل من شاء كلما وجد الى قتله سبيلاً ويستولى على ماله وما كانت عليهم مَسحة من الثقافة وكانت الفواحش والمنكرات والخمر والميسر نافقة السوق فيهم وكانوا يعرُون في ما بينهم من غير كلفة ولا حياء حتى ان نساءهم كن يطفن بالبيت الحرام عاريات وما كانوا يعرفون الحلال من الحرام . وقد كانت الحرية بلغت بهم مبلغاً جعلهم لا يتقيدون بقاعدة ولا قانون ولا وازع خلقي ويأبون الطاعة والانقياد لحاكم من الحكام . زد على ذلك أن الجهالة كانت قد تأصلت فيهم جذورها وكانوا يعبدون الأصنام ويسجدون لها ، فاذا سافروا ونزلوا منزلاً وجدوا فيه حجراً جميلاً ، اتخذوه رباً لأنفسهم وقضوا حاجتهم من العبادة بالسجود له — أي أن الاعناق التي أبت أن تخضع لأحد ، كانت تخضع للأحجار والأصنام وتظن أن هذه الأحجار هى التي تقضي للناس حاجاتهم وتحقق آمالهم وأمانيهم .

في مثل هؤلاء القوم وفي مثل هذه الاحوال ولد مولود مات عنه أبوه قبل أن يولد ، ثم مات عنه امه وجده فى أيام صباه ، فما تلقى من التربية ماعسى أن يتلقاه حتى في هذه البيئه المتداعية لو كان أبواه وجده أحياء . فلما نشأ ، وجد نفسه يرعى الغنم مع أترابه من أبناء العرب . ولما شب اشتغل بالتجارة ، وما كانت مجالسته ومعاشرته ومخالطته الا لاولئك العرب أنفسهم الذين سلف القول في ماكانوا عليه من الأحوال . فكان أمياً لايعرف القراءة والكتابة . . . ولكنّ عاداته وأخلاقه وخصاله وأفكاره كانت مختلفة كل الاختلاف عن عادات قومه وأخلاقهم وخصالهم وأفكارهم . فما كان يكذب في حديثه ولا يؤذي أحداً بيده أو لسانه ، وكان لين الجانب خفيف الظل عذب الكلام

يحبه ويفديه كل من جالسه مرة . وما كان ليأخذ من أحد شيئاً ولو كان حقيراً بطريق غير حسن وكان من الأمانة والصدق والعفاف على حظ كبير جعل كثيراً من أبناء قومه يأمنونه على أموالهم الثمينة ويودعونه اياها وهو يحافظ عليها كما يحافظ على نفسه وماله والناس كلهم يعتمدون عليه ويثقون بأمانته مما جعلهم يلقبونه بالأمين . وكان حيياً لم يظهر لاحد بدنه عرياناً بعد ما بلغ سن الشعور . وكان مهذباً ينفر من الشر والرذيلة على الرغم من كونه قد نشأ وعاشر طول حياته رجال الشر والرذيلة . وكان نظيفاً نزيهاً في كل عمل من أعماله وكان طاهر القلب يتألم عندما يرى قومه ينهبون ويسفكون الدماء . وكان يسعى لإصلاح ذات بينهم كلما حمي بينهم وطيس الحروب والمعارك . وكان لين القلب يشاطرهم في ما ينزل بهم من المصائب وينصر الأيتام والأيامى ويطعم الجياع ويضيف أبناء السبيل ويكرم مثواهم ويتحمل الشدائد والخسائر لغيره . وكان ذكي الفؤاد ثاقب القريحة يعف عبادة الأوثان والأصنام على معاشرته لقوم كانت الوثنية فطرتهم الثانية ودينهم الذي ورثوه عن آبائهم كابراً عن كابر ، وما كان ليطأطئ رأسه لأحد من الخلق كأن قلبه يحدثه أن كل شيء في الأرض أو السماء لا يستحق العبادة وان الله واحد ليس له ولا يمكن ان يكون له شريك . فكان هذا الرجل يتلألأ بين هؤلاء القوم الجاهلين كما تتلألأ الجوهرة الكريمة بين الأحجار الكثيرة أو كما يتلألأ السراج في ظلمة الليل .

وبعد ان عاش في قومه اربعين سنة عيشة طيبة عالية ، ضاق ذرعاً بهذا الظلام المطبق على مجتمعه من كل جانب وأراد لنفسه النجاة من هذا البحر الخضم من الجهل والفوضى والانحلال الخلقي والعملي والشرك

والوثنية ، فانه ما كان يجد فيه شيئاً يلائم فطرته . فبدأ يخرج من مكة ويقضي أياماً طوالاً في غار حراء في عالم الوحدة والخلوة يزكي روحه وقلبه بالتحنث[1] والجوع ويتأمل وينشد نوراً يقشع به الظلام الطبق على قومه ويريد شيئاً يصلح به هذه الدنيا الملأى بأسباب الخبث والفساد والفوضى .

وهناك يحدث تغير عظيم في حاله ويستنير قلبه فجأة بذلك النور الذي كانت تتشوف إليه فطرته ويمتلىء بالقوة التي ماظهرت فيه من قبل ، فيخرج إلى قومه من خلوة الغار وينادي فيهم أن هذه الأصنام التي تعبدونها وتعكفون عليها لاتضركم ولا تنفعكم فاركوها وأن هذه الأرض والشمس والقمر والنجوم وما في السموات والأرض من القوى ، ما خلقها إلا الله وحده ، وهو خالقكم ورازقكم وهو الذي يميتكم ثم يحييكم ، فلا تعبدوا غيره ولا تستعينوا إلا أياه ولا تطلبوا قضاء حاجاتكم إلا منه ، ومن الإثم ماتأتونه من أعمال السرقة والنهب والفاحشة وادمان الخمر ولعب الميسر ، فانتهوا عنها . واصدقوا في أقوالكم وأعمالكم واعدلوا ولا تقتلوا نفساً ولا تسلبوا الناس أموالهم ولا تأخذوا شيئاً ولا تعطوه إلا بالحق . وكلكم بشر والبشر كلهم سواء . وليس الشرف والفضل بالنسب ولا باللون واللبس ولا بالجاه والثروة وانما هما بالتقوى والصلاح والخير . فمن كان صالحاً يتقي الله وينهى نفسه عن السوء ، فهو الشريف الكامل في انسانيته ، ومن لم يكن كذلك فليس من الشرف والفضل في شيء ولا حظ له في الآخرة وكلكم مجموعون الى ربكم بعد حياتكم الدنيا ولا ينفعكم في محكمته العادلة شفاعة ولا خلة ولا رشوة ولا تسألون

---

(١) التحنث : ترك الحنث والاثم .

عنده عن علو نسبكم وإنما ينفعكم فيها إيمانكم وأعمالكم الصالحة . فمن كان مؤمناً قد عمل الصالحات منكم دخل الجنة ، ومن لم يكن عنده شيء منها ، خسر خساراً مبيناً وكان من أصحاب النار .

لكن قومه بدأوا يؤذونه ، لا لشيء ، إلا أنه يعيب عاداتهم ورسومهم الجاهلية التي ورثوها عن آبائهم ، ويصد الناس عن عبادة الأوثان والأصنام. ولذلك آذوه وسبوه وأهانوه ورموه بالحجارة وضيقوا عليه الخناق وتآمروا على قتله وما زالوا ينزلون به من أنواع الشدائد والآلام أشد ما كانوا يقدرون على انزاله ، حتى اضطر صلى الله عليه وسلم بعد ثلاث عشرة سنة الى الهجرة من وطنه . ولكنهم ما شفوا غليل نفوسهم بعد ذلك كله ، وما فتئوا يعملون على ايذائه وازعاجه في المدينة التي التجأ اليها بعد مغادرة وطنه .

لماذا تحمل هذا العبد الصالح كل هذه الشدائد والمصائب وصبر عليها من قومه ؟ ذلك لأنه أراد أن يرشدهم إلى صراط الحق المستقيم . وقد عرضوا عليه أن يملكوه على أنفسهم أو يجمعوا له من أموالهم حتى يكون أكثرهم ثراء على أن يقلع عما هو عليه من الدعوة إلى الله . ولكنه رفض كل ذلك رفضاً وأبى إلا الاستمرار في دعوته . فهل يمكن أن يكون في الدنيا رجل أكثر منه صلاحاً وصدقاً وايثاراً لأنه لايتحمل كل هذه الشدائد والآلام في سبيل نفسه ولكن لصالح غيره من عباد الله ، وهم يرمونه بالحجارة ويغمزونه باقبح الكلمات ولكنه لا يدعو لهم إلا بالخير .

ثم تفكر قليلاً في ذلك التغيير العظيم الذي حدث فيه بعد خروجه من الغار : كان الكلام الذي يتلوه على الناس بالغاً من الفصاحة والبلاغة

قمتها حتى لم يأت بمثله أحد قبله ولا بعده . كان العرب ، كما لا يخفى عليك ، يفتخرون بشعرهم وخطابتهم وفصاحتهم في الكلام ، فتحداهم ان يأتوا بسورة من مثل هذا الكلام . فاعياهم وطأطؤوا رؤوسهم عجزاً . والذي يدعو إلى العجب أكثر من ذلك أن اللسان الذى كان يستعمله ويتكلم به في احاديثه للناس وفي خطبه ما كان يعادل لسان هذا الكلام بلاغةً وفصاحةً . فاذا قارنت اليوم بين هذا الكلام وبين خطبه وأحاديثه ومحاوراته للناس ، تجلى لك الفرق واضحاً جلياً بينهما .

قد بدأ هذا الامي — ﷺ — الذي لم يولد ولم يقم طول حياته إلا في الصحراء بين الاميين ، يأتي بحكم ومواعظ لم ينطق بها احد قبله ولا استطاع ان ينطق بها أحد بعده ، بل لم يسمعها الناس من لسانه نفسه قبل أن يبلغ اربعين سنة من عمره .

وكذلك وضع هذا الامي — ﷺ — قوانين في الاخلاق والاجتماع والسياسة وفي سائر الشؤون الانسانية لا يكاد يدرك حكمها وأسرارها فحول العلماء وكبار الحكماء على بعد نظرهم وتجارب حياتهم إلا بصعوبة عظيمة بل ستظل تنكشف للدنيا في المستقبل من حكم هذه القوانين ومقاصدها على قدر ماتزداد تجاربها على مر الايام . لقد وضع هذا الامي قوانينه قبل اكثر من ثلاثة عشر قرناً . ولكننا لا نستطيع ان نجد فيها اليوم موضعاً واحداً يحتاج الى التغيير واعادة النظر أو مادة واحدة يمكن حذفها أو ازالتها عن مكانها ، مع أن القوانين الوضعية الاخرى وضعت مراراً وغير فيها مراراً .

وفي مدة الـ ٢٣ سنة الوجيزة صار كثير من اعدائه الذين وقفوا له بالمرصاد وتآمروا على قتله ولم يألوا جهداً في ايذائه من اصدقائه المفدّين

له بالارواح ... وكل ذلك بفضل اخلاقه وشرفه ونبله وتعاليمه السامية. فقد قامت في وجهه القوى العظيمة الجبارة فانكسر اهلها وانقلبوا صاغرين امامه ، وعندما انتصر عليهم لم ينتقم من احدهم بل غمره بفضله واكرامه وانعامه . فقد غفر لمن قتلوا عمه وأخاه في الرضاعة حمزة بن عبد المطلب وبقروا بطنه ولاكوا كبده ، واسبغ كسوة الغفران والعفو الشامل على من رموه بالحجارة وأخرجوه من وطنه ... ما كاد لأحدٍ ولا نقض عهده ولا اعتدى عليه في حرب وكان ذلك مما لم يجترىء لأجله حتى اعدى اعدائه أن يتهموه بالغدر والظلم ونقض العهد وذلك هو الذى سخر له قلوب العرب جميعاً الى أن أخرجهم ـ بتعليمه وهدايته ـ من دياجير الجهل والهمجية وجعلهم امة حائزة قصب السبق في النظام والتهذيب . والعرب الذين ما كانوا ليتقيدوا بقانون من القوانين أخرج منهم امة في غاية من التقيد بالنظام والقانون لا يوجد لها نظير في تاريخ العالم . والعرب الذين ما كانوا ليرضوا بطاعة أحد والانقياد لأمره . جعلهم منقادين لدولة عظيمة مفدين لها بأرواحهم وأموالهم . والذين ما كانوا من الأخلاق والآداب في شيء ، قد زكى آدابهم وهذب اخلاقهم حتى أن الدنيا لا تكاد تقضى عجبها اليوم عندما تقرأ وقائعهم واحوالهم في كتب التاريخ . والذين كانوا أحط أمم الأرض واضعفها ، نالوا في أنفسهم بفضل تأثير هذا الرجل الواحد ودعوته خلال ٢٣ سنة قوة سخرت لهم دول فارس والروم ومصر وقاموا يعلمون الدنيا الشرف والمدنية والاخلاق والانسانية وانتشروا بتعليم الاسلام وشريعته في أنحاء آسية وأفريقية وأوربة النائية .

تلك هي الآثار التي تركها تعليم النبي محمد ﷺ في نفوس العرب . أما

ما فعله هذا التعليم في نفوس سائر امم الأرض ، فهو اكثر من هذا وادعى الى العجب . فقد أحدث ثورة عظيمة في أفكار سائر أهل الأرض وعاداتهم وقوانينهم . فاذا سرحت النظر في الذين اعرضوا عن اتباعه وخالفو عن أمره وناصبوه العداء ، فضلاً عن الذين اتبعوه وجعلوا منه اسوة لانفسهم ، تجدهم ما استطاعوا أن يمنعوا انفسهم التأثر بتعليم هذا الامي . كانت الدنيا قد نسيت توحيد الله ، فجاء هذا الامي ـ ﷺ ـ فذكرها به من جديد حتى ان ديانات الوثنيين والمشركين لاتجد اليوم بداً من دعوى التوحيد لله تعالى . وكذلك كانت المبادىء التي لقنها الناس في الأخلاق والآداب بالغة القوة حتى تأثرت ولا تزال تتأثر بها اخلاق سائر امم الأرض وآدابها . وكذلك كانت المبادىء التي وضعها في القانون والسياسة والمدنية والاجتماع من الصحة والصدق والاتقان بمكان جعل الاعداء والجاحدين يصدق كلامه يقتبسون ويسترقون منها ، بل لا يزالون يقتبسون ويسترقون منها الى اليوم .

هذا الرجل كما بينا لك من قبل ، ما نشأ الا مع الفطرة في أمة عريقة في الجهل والهمجية ولم يشتغل إلا برعى الغنم أو التجارة حتى بلغ اربعين سنة من عمره ولم يتلقّ أي نوع من التعليم والتربية ، فكيف تجمعت فيه مظاهر الكمال هذه دفعة واحدة بعد بلوغه أربعين سنة من عمره ؟ ومن أين حصلت له هذه المعرفة والعلم ومن أين وجدت هذه القوة غير العادية ؟ فتراه قائداً منقطع المثال من قواد الجيش وقاضياً ماهراً من القضاة ومقننا غير عادي من المقننين ، وفيلسوفاً نطاسياً من الفلاسفة ومصلحاً مبتكراً من مصلحي الاخلاق والتمدن وسياسياً محنكاً من رجال السياسة في حين واحد ، ثم تراه يعبد ربه ساعات طوالاً في الليل على

كثرة ما عليه من الاشغال المهمة في النهار . وكذلك تراه يؤدي ما عليه من الحقوق لازواجه واولاده وعشيرته ويخدم الفقراء والمساكين ويواسي المنكوبين واليتامى ولا يعيش إلا عيشة الفقراء على ما نال من ملك عظيم : ينام على الحصير ويكتسي الخشن ويطعم الفديد ، بل قد تمر عليه أيام لا يطعم فيها شيئاً .

فلو أنه قال للناس بعد هذه الأمور المدهشة اني لست كمثلكم وأنا فوق النوع البشري ، لما وسع أحداً من الناس أن يكذبه ويرد عليه دعواه . ولكنه لم يقل ذلك ولم يدّع أن هذه المواهب غير العادية من تلقاء نفسه ، بل إنه قال دائماً إنه ليس شيء من هذه المواهب من عند نفسي وكل ما عندي من شيء فهو لله ومن الله ، وأن هذا الكلام الذي جئتكم به وقد عجز عن الاتيان بمثله الجن والإنس . ما هو من عند نفسي ولا من بنات فكري ونتيجة قريحتي ، بل هو كلام الله ولا يرجع الفضل فيه إلا إلى الله وحده ، وكل ما آتي به من عمل ، فليس من كفاءتي الشخصية ، بل الله تعالى هو الذي وفقني له ، وإني لا أعمل شيئاً ولا أقوله إلا حسب ما يأمرني به ربي فقل لي بعد كل ذلك ما لنا أن لا نؤمن بمثل هذا الرجل الصادق ولا نسلم به نبياً مرسلاً من عند الله تعالى ؟ انظر إلى مواهبه في جانب : ما انجبت الانسانية قبله ولا بعده رجلاً يماثله فيها ، وإلى صدقه وامانته بالجانب الآخر : لا يفتخر بما أتى به ولا يكسب الثناء على نفسه بنسبته إلى نفسه وانما يعزوه إلى الله الذي أكرمه بها . فما لنا بعد كل ذلك لا نصدقه في ما يقول ؟ وما لنا نكذبه عندما يقول : إن هذه الكفاءات ومظاهر الكمال كلها من عند الله فنقول له بل إنها مما اختلقته أنت

ونبع من ذهنك وأفكارك !! إن هذا الرجل الصادق الأمين أبى أن ينسب إلى نفسه المحاسن التي كان من الممكن بكل سهولة أن ينسبها إلى نفسه ، وما كان أحد غيره يعرف مصدرها . فلو أنه ادعى بناءً عليها ان له شخصية فوق عامة البشر ، لما استطاع احد أن يفند دعواه ، فمن أصدق من هذا الرجل وأكثر منه أمانة ونزاهة .

ألا إن هذا الرجل الصادق هو سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله ﷺ ، وصدقه هو الدليل على نبوته . إن اعماله الجليلة واخلاقه السامية وما حدث في حياته الطيبة من الوقائع كلها ثابتة في كتب التاريخ مدونة فيها . فكل من يقرأها بقلب سليم متحرياً الحق والصدق ، يشهد له قلبه من غير ما شك انه ـ ﷺ ـ نبي مرسل من عند الله تعالى . وأن الكلام الذي عرضه على قومه هو هذا القرآن الكريم الذي نتلوه . فكل من يقرأه بقلب رحيب فاهماً معناه ، فلا بد له من الاقرار بأنه كتاب منزل من عند الله تعالى ولا قِبَل لأحد من البشر أن يأتي بمثله .

ختم النبوة :

هذا ، وينبغي لك الآن أن تعرف أنه لا سبيل إلى معرفة الإسلام ومعرفة صراطه المستقيم غير تعليم النبي ﷺ والقرآن الكريم . ومحمد ﷺ نبي مرسل إلى النوع البشري كافة وقد ختمت به سلسلة الوحي والنبوة والرسالة ، والله تعالى قد أرسل بواسطته كل ما أراد أن يرسله إلى الناس من الهداية والنور . فكل من كان طالباً للحق الآن وأراد أن يكون عبداً مسلماً لله تعالى ، فلا بد له أن يؤمن بخاتم النبيين ويذعن كل الاذعان لما جاء به من الهدى والبينات ويتبع طريقه .

الدلائل على ختم النبوة :

إذا أدركت حقيقة النبوة ، تبين لك أن الأنبياء لا يولدون كل يوم ، كما ليس من الضروري أن يكون لكل أمة نبي في كل حين من احيانها ، فان حياة النبي حياة ما يأتي به من الهداية والتعليم . فهو حي مادامت هدايته حية . قد مات الأنبياء الاقدمون ، لأن الناس بدلوا تعاليمهم ومزجوها بما شاؤوا من اهوائهم ، ولا يوجد اليوم كتاب من كتبهم في صورته الأصلية ولا يكاد يدّعي اتباعهم أن لديهم كتب انبيائهم في صورتها الأصلية . وكذلك نعي الناس سيرة هؤلاء الأنبياء . ولا يكادون يعثرون على أحوالهم الصحيحة المعتمد عليها ، حتى أنه لا يمكن الجزم بزمانهم أو مكانهم الذي ولدوا فيه وما جاؤوا به في حياتهم من الأعمال . وكذلك من المستحيل أن يعرف الناس اليوم كيف قضى هؤلاء الأنبياء أيام حياتهم وما ذا امروا به وما ذا نهوا عنه وذلك هو موتهم ، أما نبينا محمد ﷺ ، فلا يزال حياً لأن هدايته حية ولا يزال بايدينا ذلك القرآن الكريم الذي أنزله الله عليه بالفاظه الأصلية وما دب دبيب التغير إلى حرف من أحرفه أو نقطة من نقطه أو حركة من حركاته ، ولا تزال سيرته وأحوال حياته وجميع أعماله وأقواله مدونة محفوظة في الكتب على ما مضى عليها من السنين الطوال كأننا نشاهد اليوم شخص النبي ﷺ باعيننا ونسمع كلامه باسماعنا ، وليس في الدنيا رجل قد حوفظ على وقائع حياته كما حوفظ على وقائع حياة النبي محمد ﷺ ، ومن الممكن أن نقتدي به ونتأسى بأسوته في كل شأن من شؤون حياتنا في كل حين من أحيانا . فذلك هو الدليل

على أن لا حاجة للبشر اليوم إلى نبي مرسل من عند الله تعالى بعد النبي محمد ﷺ .

ولا يرسل نبي بعد نبي إلا لأحد الأسباب الثلاثة الآتية :

١ — أن يكون تعليم النبي المتقدم قد امحى وظهرت الحاجة الى عرضها على الناس مرة أخرى .

٢ — أو أن يكون تعليم النبي المتقدم غير كامل فهو بحاجة إلى اصلاحه أو إتمامه .

٣ — أو أن يكون تعليم النبي المتقدم منحصراً في أمة خاصة وتكون أمة أخرى أو سائر الأمم بحاجة إلى نبي مرسل مثله[1] .

وقد انعدم كل سبب من هذه الأسباب الثلاثة اليوم :

١ — إن تعليم النبي محمد ﷺ حي ولا يزال بأيدينا من الوسائل ما يمكن أن نعلم به في كل حين من الأحيان ما كان دينه ﷺ وأي هداية جاء بها من عند الله تعالى وأي طريق للحياة روجه في الناس وما هي السبل التي جاهد ليصد الناس عنها . فاذا كانت هدايته لا تزال حية في متناول الأيدي ، فلا حاجة إلى نبي آخر يجددها ويعرضها على الناس مرة أخرى .

٢ — قد نالت الدنيا تعليم الإسلام الكامل بنبوة محمد ﷺ . فلا حاجة اليوم ألى أن يضاف إليه شيء أو ينقص منه . وأيضاً ليس فيه

---

(١) ويمكن أن يكون السبب الرابع ايضاً أن يرسل بعد النبي نبي آخر لتأييده وتصديقه . ولكنا لم نذكره في هذا المقام ، لأنه ما ورد له في القرآن إلا مثالان فقط ، ولا يمكن ان يستنتج من هذين المثالين المستثنيين ان الله يرسل الانبياء ويرسل بعدهم أنبياء آخرين لتأييدهم وتصديقهم على قاعدة مطردة عامة .

قصور ينبغي أن يأتي لتلافيه نبي آخر بعده ﷺ ، فقد زال السبب الثاني أيضاً :

٣ — كانت نبوة محمد ﷺ إلى العالمين جميعاً وما كانت منحصرة في أمة دون أمة أو زمن دون زمن . فلم يبق لأمة من الأمم حاجة إلى أن يرسل اليها نبي خاص بها من عند الله . فهكذا زال السبب الثالث أيضاً .

ولأجل كل ذلك قيل لمحمد ﷺ خاتم النبيين أي من جاء آخرهم . فلا حاجة للدنيا اليوم إلى نبي آخر ، وإنما هي بحاجة إلى رجال يتبعون النبي ﷺ ويدعون الناس إلى اتباعه ويفهمون هديه ﷺ ويعملون به ويقيمون في الأرض دولة ذلك القانون الذي جاء به محمد ﷺ من عند الله تعالى .